

في التصاميم... الزائد كالناقص

أليس روزثورن

صحيفة نيويورك تايمز

24 يناير 2010

Design... When More Is Decidedly Less

By Alice Rawsthorn

The New York Times Newspaper

ترجمة: علي الحارس

- صحفية بريطانية تكتب عموداً أسبوعياً في صحيفة (هيرالد تريبيون). وعموداً ثابتاً في مجلة (نيويورك تايمز).
- عضو مجلس الأجنحة العالمية للتصميم، المنتدى الاقتصادي العالمي.
- أمينة صالة (وايت تشابيل) لعرض الأعمال الفنية.
- مديرة متحف التصميم، لندن (2001-2006).
- عضو هيئة تحكيم في العديد من الجوائز العالمية، مثل: جائزة الاغاخان للهندسة، وجائزة مهرجان (BAFTA) للأفلام.
- إجازة في الفن وتاريخ الهندسة، جامعة كامبريدج.



أليس روزثورن

من التجارب التي لم أكن محظوظة فيها ما حصل لي في بيت أحد أصدقائي. حيث كان يريني منزله الجديد. وفيه اتخذت صنابير المياه في جميع حمامات المنزل شكلاً شبيهاً بجهاز آيبود (iPod). وعندما قمت بتشغيل أحدها أضاءت فيه مجموعة من المصابيح الصغيرة لتكشف عن أزرار التحكم، وهذه الأزرار يمكنك أحدها من تغيير درجة حرارة الماء، ويعطيك زر آخر حرية التحكم بسرعة الجريان. لكنني لم أتمكن من إيقاف جريان الماء مهما حاولت؛ تنهد صديقي قائلاً: «لا تقلقي... هذا يحدث دائماً». ثم حاول أن يجرب حظه مع الأزرار دون جدوى، ليستنجد بعدها بالإرشادات المتوفرة على الموقع الإلكتروني للشركة المصنعة.

لم تحلّ الجلبة التي تسببت بها دون أن أتساءل عن سبب شرائه لهذه الصنابير. فما الضير في استعمال الصنابير القديمة التي تفتح وتغلق يدوياً؟

لقد وقع صديقي ضحية للعنة التصاميم المبالغ فيها، حيث صدق أحلام «الاختراعات» المدهشة التي وعدته بأن تجعل حياته أسهل. لكن أوهامه كانت من السوء بدرجة جعلت

في التصاميم... الزائد كالناقص

حياته أصعب. وقد تكون أنت، عزيزي القارئ، ضحية لعنة أخرى: الهواتف الخلوية العصية على العمل. والمواقع الالكترونية العصية على القراءة. وكل ما هو معقد التصميم بشكل مزعج. أضف إلى ذلك التغليف المبالغ به، والنسخ الألكترونية من كل شيء، ووظائف الآلات التي لا يحتاجها إلا فئة قليلة ولا نستطيع حتى أن نلفظ أسماءها ناهيك عن استخدامها. فهذه كلها أمور لا بد أن نكون قد عايشناها من وقت لآخر.

ليست هذه الظاهرة بالأمر الجديد، فمنذ أن اندلعت الثورة الصناعية، سعى المصممون جاهدين إلى صناعة أشياء تقدم أمورا لم يتطرق إليها السابقون: أسرع، أقوى، وظائف أكثر، وأكثر على جميع المستويات. وإن تم اختيار وتنفيذ هذه «الأكثر» على نحو جيد فقد يؤدي ذلك إلى التقدم، أما إن تم على نحو سيئ، فقد يؤدي إلى أضرار جانبية، فمن لديه الوقت الكافي لاستطلاع موقع الكتروني من أجل معرفة كيفية إغلاق صنوبر؟

إن جوهر المشكلة يكمن في أن نعيش في مرحلة معينة من حلقة التصميم حيث تكون الكثير من «الاختراعات» مزيفة وتهدد حياتنا بأخطار مخيفة نتيجة المبالغة في تعقيدها. ولا عذر لأحد في ذلك، خاصة وأن صفات مثل «الوضوح» و«البساطة» تحوم دائما في فضاء كل اتجاه تصميمي تقريبا.

إن «الوضوح» يحتل أعلى منزلة في قائمة المبادئ الرئيسية للتفكير التصميمي كما وضعتها لجنة الأجندة العالمية في المنتدى الاقتصادي العالمي. وستقوم إحدى جلسات الملتقى السنوي للمؤتمر في دافوس هذا الأسبوع باستكشاف مدى قدرة هذه المبادئ على المساعدة في التعامل مع المشكلات الاجتماعية والاقتصادية والبيئية الملحة. ولست أكشف سرا إن قلت بأني عضو في مجلس الأجندة العالمية للتصميم وسأكون من المتكلمين في الجلسة.

في التصاميم... الزائد كالناقص

وممن سيشارك في الكلام أيضا مصمم البرامج الأمريكي جون ميدا (John Maeda) الذي ألف كتابا مخصصا لشرح «قواعد البساطة» عرّف فيه «الاختزال الحكيم» بأنه الهدف الأساسي للتصميم المسؤول. وشرح ذلك بقوله:

عندما ألفت الكتاب قبل أربعة أو خمسة أعوام، كان ذلك إبان صعود الأجهزة المعقدة الشاملة والتي تصادفت مع مزاج «الأكثر أفضل». ولكننا الآن في وضع ليست فيه البساطة فكرة جيدة فحسب. وإنما ضرورة من الضرورات أيضا.

لماذا إذن هنالك هذا العدد الكبير من المصممين (والشركات التي يعملون فيها) ممن لا يزالون ذوي ميل شديد نحو الأمور شديدة التعقيد؟

من الإجابات المطروحة لهذا السؤال أن العادة فرضت أحكامها نظرا لافتراض كسالى المصممين دائما بأن إضافة «الأكثر» سيجعل الأمور أفضل دون إزعاج أنفسهم بالتفكير في قطعة هذا الرأي. وفي بعض الأحيان يكون السبب هو التصميم المبالغ. ومثاله الجيل الجديد من آلات صناعة قهوة (اسبريسو)، فهي تبدو كسيارات رياضية مصغرة في المطبخ:



آلة ديفا (diVa)

مفرطة الحجم، مفرطة التعقيد، مفرطة في كل شيء. وفي رأيي الخاص أن أسوأها الآلة التافهة المنمقة التي أنتجتها شركة كازا بوغاتي تحت اسم ديفا (diVa)، والاسم السخيف يدل على المسمى، وتعقيد كتابة الاسم لا يزيد الطين إلا بلة.

الأسوأ من ذلك كله هو شدة التعقيد في وظائف الأجهزة، وخاصة إذا كانت مخصصة للعمل على تلبية حاجات ماسة. ومن يطلع على تجربة كاميرون سينكلير (Cameron Sinclair)،

في التصاميم... الزائد كالناقص

وهي أحد مؤسسي منظمة (هندسة من أجل البشرية) التي تضم شبكة عالمية من المتطوعين. يجد أنها صادفت الكثير جدا من الأمثلة على هذه الظاهرة في مشاريع التنمية والبناء الاضطراري، وإليك وصفها لأحد الأمثلة:

أسوأ ما شاهدته برميل للتناضح العكسي للماء تم تصميمه من أجل النساء والفتيات في أفريقيا. حيث أهمل المصممون ملاحظة أن الجهاز يهدر (80%) من الماء مما يدفع الناس إلى إمضاء الساعات وهم يدحرجون (30) غالونا من الماء الملوث إلى الأمام والخلف للحصول على بضعة غالونات من الماء النظيف.

لقد كان انعدام البصيرة لدى بعض المصممين سببا دائما في أمثال هذه المشكلات، لكنهم يواجهون اليوم تحديات جديدة تتعلق الكثير منها بالتوجه الرقمي، ومن ذلك قضية القوة الهائلة للتكنولوجيا الحالية، أو ما يشير إليه السيد ميدا بأن أصغر هاتف خلوي أكثر تعقيدا من الجرافة في يومنا هذا.

بالرغم من كل ما سبق، فإن مبدأ الوضوح والبساطة في التصاميم يحظيان بأهمية لهما على صعيد الاختراعات الرقمية الراهنة، ومنها تقنية تصوّر البيانات (Data Visualization)، وهي لغة تصويرية جديدة تفسر المعلومات المعقدة بوضوح، وتشكل أساس تصميم أنظمة التشغيل أو واجهة المستخدم لبعض الآلات الرقمية مثل الأيبود (iPod) والآيفون (iPhone) التي تعتبر من أكثر المنتجات سهولة وتلقائية في التشغيل؛ وهذا يختلف عن الحالة المعقدة للأجهزة الأخرى التي تطورت واجهة المستخدم فيها من خلال إلصاق العديد من البرامج المختلفة بعضها ببعض، وأكثر تعقيدا من ذلك النسخ الرقمية من الأجهزة العادية، فهي ليست بعيدة عن الإبداع فحسب، وإنما تنصف واجهة المستخدم فيها بأنها أقل منطقية من الواجهة العادية؛ وما ذكرناه في بداية المقال عن الصنبور الرقمي أكبر مثال على ذلك: فما دام الصنبور العادي يعمل على أكمل وجه، تنعدم مبررات

(1) التناضح العكسي للماء: من تقنيات تصفية المياه. (المترجم)

في التصاميم... الزائد كالناقص

«رقمته». ولا ينتج عن ذلك إلا سلعة مبالغ بها وغير ضرورية. والمشكلة تتعدى الصنوبر إلى منتجات ينبغي أن تكون رقمية كالتلفزيون الذي يقول عنه السيد ميذا:

اختر أي نوع من أنواع أجهزة التلفزيون الجديدة، وستجد أن جميعها يشترك في أن تشغيله لا يعني مشاهدتك لأي شيء بالضرورة.

من المؤسف أن نجد تزايداً في عدد المنتجات التي تلاقى مصير الصنوبر السابق نفسه، فالكثير من الأدوات التي نستعملها يوميا «تُستبدل» بها أدوات أخرى تعمل بشاشات اللمس. وخذ مثلاً جهاز الآيفون الذي يؤدي مهام الساعة والهاتف وآلة التصوير والساعة ومشغل الديفيدي والسيد ومقياس الضغط الجوي وما إلى ذلك، فمهارات تصميم واجهة المستخدم تلعب دوراً في تحديد مدى متعة استخدام الجهاز يوازي الاعتبارات العادية كالشكل العام.

إننا نرنو اليوم إلى مصممين يمتلكون تلك المهارات للنجاة بنا من لعنة التصاميم شديدة التعقيد التي تجتاح أوساطنا هذه الأيام.